مجلة المجمع العلمي

صورة الملك في الموروث الشعري الجاهلي

الاستاذ المساعد سعد خضير عباس
كلية التربية للعلوم الانسانية / جامعة ديالى

الملخص :

يتحدث هذا البحث عن صورة الملك في الموروث الشعري الجاهلي ويتعرض لموقفين :

الأول : الملك رمز الرهبة والسلطة والقوة والمكانة العالية .

الثاني : الملك رمز الكرم والأخير والعطاء .

وفي ضوء هذين الموقفين تعرض البحث للقضايا التي تتصل بهما .

المقدمة :

تمثلت في حياة الجاهليين مكانةً عاليةً مميّزة ، كان الملكُ سمع أهل الجاهلية الذي يسمعون به ، وبصرهم الذي يبصرون ، ملأ نفوس هؤلاء عزّا وكبرياء ، وصار فرحهم الذي يفرحون ، وحزنهم الذي يحزنون ، هو آلامهم وآمالهم ، بعين الملك رأوا الدنيا ، فهو الذي يغذّيهم روحيّا وماديا ، اختصروا فيه حياتهم ، فهو المعطي والموهب ، وهو المانح والحاجب ، وهو الرأس والربيع والخصب ، وهو الملك الذي يقود مواطنيه ، والعمود الذي عليه العماد ، والمعقل الذي إليه يلجأ العباد وهو الكاشف للكروب ، بيده البؤس والشقاء ، وبيده النعيم والعطاء فهو مقصد

الفقراء في المحل والجوع ، فهو البحر الزاخر ، والنهر في تدفقه وعطائه ، فهو كرم الحياة ومصدر الجود ، فالفقرُ والموتُ وحش ينهشُ بأنيابه الضارية أرواح مواطنيه ، ويقرع بأصابع لا لحم عليها أقدارهم ، وليس سوى رحمة الملك تمتدُ لتسدّ رمقهم ، وتطرد غائلة الجوع عنهم ، وينفخ فيهم روحا تَقوى بهم على الحياة ، وكأنّ بكرم الملك قد صار عرفا في حياتهم سجلّه الشعراء بحروف مضمّخة بكرم الملوك ، ودعاء الفقراء ، وإقرارهم بأنَّ رحمة الملك قد وهبت لهم الحياة ، وأنَّ كرم الملوك هذا قد رفعهم إلى مصاف الآلهة التي تهب الحياة والخير والروح ، فهو المالك للدنيا ، والامتلاكُ شعورٌ بالفخر والمكانة والزهو والإعجاب والعظمة والأمان ، يحجّون إليه ويطوفون بأبوابه للعطاء ، ولا فخر ، فالملك قريب من الإله في ما يحتاج إليه الأفراد من رَبُيع وشجاعة ومكانة وولاء وحماية ، وقد نوّع الشعراء في رسم صورة الملك المقدسة ، المستمدّة من الواقع الحياتي للشاعر وقومه ، فالملكُ القوةُ أمام الضعف والعطاءُ أمام الجدب ، والأمنُ والأمان أمام الخوف والاضطراب ، فكانت هذه الصورة ماثلة في شعر الشاعر الجاهلي خالدة بخلود هذه الأمة وأبنائها .

صورة الملك في المدح :

الملكُ من أبرز الشخوص التي نظر إليها الناسُ نظرة إكبار وتعظيم ، وقد رسم الشعر هذه الصورة الملونة تعبيرا عن هذه النظرة ، وهذا الإعجاب فهو السجل لهذه الصفات التي وضعتهم في كثير من الأحيان في مصاف الآلهة ، كما وضعتهم موضع المثال والقدوة ، والمدح الذي تحدّث فيه معظم الشعراء إعجابا بشخصية الملك ورغبةً في الفضيلة ، وتقرُّبا من

الملك الممدوح حيث أفاض الشعراء بالمدح فأجزل الملك العطاء ، وكان لا بدّ للشاعر وهو يقف بين يدي الملك العظيم أن يسجل ما لاقاه في رحلته إلى الملك الممدوح من عنت ، وما كابده من مشقّات ، وما اجتاز من مفاوز مهلكة ، كل هذا ليكون الشاعر جديرا بالعطاء .

فهذا عمرو بن قميئة يصف رحلته ، وقد قطع مفاوز مخيفة يتراءى له فيها السراب ، فيزيدها وحشةً ورهبةً وخوفا ، يقطعها على ظهر ناجيةٍ قوية صلبة سريعة الجري ، لا يثنيها شيء ، وكأنّها أتان وحشية تفرّ من صياد ، وهذه الرحلة لطولها وشدّة أهوالها تكاد تزهق ناقته ، حتى يصل إلى المنذر ملك الحيرة ، فيخفّف بعطائه ما لاقاه من أهوال ، فيقول[1] :

وبيداءَ يلعب فيها السرا ... بُ ، يخشى بها المدلجون الضلالا
تجاوزتها راغبا راهبا ... إذا ما الظباء اعتنقت الظِلالا
بضامرة كأتان الثميل عير ... انةٍ ما تشكّى الكلالا
إلى ابن الشقيقةِ أعملتها ... أخفُّ العقابَ وأرجو النوالا
إلى ابن الشقيقةِ خيرِ الملوكِ ... أو فاهمُ عند عقدِ حبالا[2]

وشأن عمرو بن قميئة شأن الأعشى الذي يسجل ما عاناه من خوف وتعب في سبيل الوصول إلى الملك قيس بن معد يكرب ، فهو قد قطع صحراء موحشة مضلة ، فوق ناقة ضخمة ، سلسة القياد ، تنطلق مسرعة

---

(1) الديوان : ٦٩ .

(2) المدلجون : السائرون من أول الليل . وأتان الثميل : الصخرة الضخمة في باطن المسيل لا يرفعها شيء ولا يحركها . والعيرانة : الإبل الصلبة النشيطة . لسان العرب : مادة (دلج) ، و(أتن) ، و(عور) .

هو جاء تعتسف الطريق اعتسافا ، فتضطرب السيور التي تشد جوانب الرحل إلى أرساغها ، تاركة وراءها أثر أخفافها مطبوعا في الرمال ، وهي ناقة ليست بحاجة إلى مَنْ يستحثها ، ولم يزل يُعملها حتى تركها كهالك هزالا ، كل ذلك من أجل أن يلقى رجلا كريما ذا مكانة ومنزلة عالية ، فيقول[٣] :

وجزور أيسار دعوتُ لحتفها ... ونياطِ مقفرةٍ أخافُ ضَلالها
بهماءَ موحشةٍ رفعتُ لعَرْضها ... طرفي لأقدر بينها أميالها
بجلالةٍ سرحٍ كأنّ بغرزِها ... هِرّا إذا انتعل المطيّ ظلالها
عَسَقا وإرقالِ الهجير ترى لها ... خدَ ما تُساقِطُ بالطريق نِعالَها
كانتْ بقيةَ أربعٍ فاعتمتُها ... لمّا رضيتُ مع النجابة آلها
فتركتُها بعدَ المراحِ رذيّةً ... وأمنتُ بعد ركوبها إعجالها
فتناولتُ قيسا بحُرِّ بلادِه ... فأتتْه بعد تنوفة فأنالها
فإذا تجُوّزُها حبالَ قبيلةٍ ... أخذتْ من الأخرى إليكَ حبالها
قبل امرئٍ طلقِ اليدين مُباركٍ ... ألْفى أباهُ بنجوةٍ فسَما لها[٤]

وكانت الرحلةُ عند علقمة الفحل صعبة طويلة ، حتى أنها تثني النواجي وتهزلها على الرغم من قوتها . رحلةٌ قام بها على ناقة سريعة تشبه البقرة الوحشية المذعورة من الصيادين ، قطع في أثنائها الفلوات المخيفة ، والطرق الوعرة والأماكن الغليظة غايته منها الوصول إلى الملك الحارث بن أبي شمّر الغسّاني .

---

(٣) الديوان : ٢٧ .

(٤) الجزور : من الإبل خاصة يقع على الذكر والأنثى . ونياط الصحراء بَعُدَ طريقها ، فكأنّها نيطت بصحراء أخرى ، فلا تكاد تقطع . لسان العرب : مادة (جزر) .

وقد تجشّم مصاعب الرحلة أملا في الحصول على ما كان يرجو مِن معروفه ، وفضله ، فيقول[٥] :

وناجيـــة أفنى ركيبَ ضلوعِهـــا ... وحاركَهـــا تهجّـــرٌ فـــدؤوبٌ
وتصبحُ عن غبّ السُّرى وكأنّها ... مُولّعـــة تخشى القنيص شَبوبُ
تعفّف بالأرطى لهـــا ، وأرادَهـــا ... رجـــالٌ فبـــذّتْ نَبلَهم وكَليـــب
إلى الحارث الوهاب أعملتُ ناقتي ... لكلكلهـــا والقُصرييـــن وجيـــب
لتُبلغنـــي دار امـــرئ كان نائيـــا ... فقد قربتنـــي من نداك قَـــروب
إليك – أبيتَ اللعنَ – كان وجيفها ... بمشتبهـــات هولهُـــنَّ مَهيـــب
هداني إليـــكَ الفرقـــدان ولاحبٌ ... له فوق اصـــواءِ المِقانُ غُلوبُ[٦]

فالرحلة طويلة ، والطريق صعبة وشاقة ، والرغبة في لقـــاء الملـــك عارمة قويّة ، تحتاج إلى ناقة قوية سريعة تنقل الشوق إلى الممدوح .

ويبدأ الشاعر في وصف الملك بالكرم والجود فهو الربيع ، وهو الخير والعطاء وبهجة النفس ، جوده يرتبط بشجاعته وحزمه وقوّته ، فهو بسيفه وكرمه استطاع أن يقطع دابر الفقر ، فيقول النابغة مادحا الملك النعمان بن المنذر ، ومعتذرا إليه ، هاجيا مُرّة بن ربيع ابن قريع . وكان النعمانُ قبل ذلك غاضبا عليه[٧] :

---

[٥] الديوان ٢٥-٢٧ .

[٦] الناجية : الناقة السريعة . ركيب ضلوعها : ما ركبها من الشحم واللحم . الحارك : فرع الكتفين ، ومقدم السنام . مولعة : بقر الوحش . شـــبوب : المُـــسنّة . لـــسان العرب : مادة (نجا) ، و(ركب) ، و(حرك) ، و(ولع) ، و(شبب) .

[٧] الديوان ١٢٧ .

وأنتَ ربيــعٌ ينعشُ الناس سيبُه وسيفٌ أعيرتْهُ المنيّةُ ، قاطــعُ

وهلاكُ الملكِ هلاكٌ للناسِ جميعا ، كما صوّر ذلك النابغة ، وقد وَفــدَ على النعمان بن المنذر إبّان اشتداد مرضه ، فقال[٨] :

فإنْ يهلكْ أبو قابــوس يهلكْ ربيــعُ الناس ، والشهرُ الحــرامُ

فأبو قابوس يعطي المحتاجين ، فهو بمنزلة الربيع في الخصب لكثرة عطائه وفي الوقت نفسه يحمي من يحتاج إلى حماية ، فهو موضــع أمــن لكل خائف أو مستجير ، مثل الشهر الحرام . والملك في عطائــه يغنــي ويحمي ، ويفيض هذا العطاء كثيراً ويزيد . يقول الحــارث بــن حلــزة اليشكري مادحا قيس بن شراحيل بن همام بن ذهل بن شيبان[٩] :

أفــلا نعدّيهــــا إلــى ملك شِهــمِ المقَــادةِ ماجــدِ النفسِ

وإلى ابن ماريــةَ الجواد وهلْ شِروى أبــي حسّان في الأنسِ

يَحْبوك بالزغْفِ الفيُوض على هميانهــا والدُهْــم كالغــرسِ

وبالسبيكِ الصفــرِ يعقّبهَــا بالآنسات البيــض واللُّعــسِ[١٠]

ومن بلوغ الكرم والجود الغاية والأصالة في الملك النعمــان ، حتــى نسب الأعشى إليه ذلك بقوله[١١] :

---

[٨] الديوان ١٦٩ .

[٩] الديوان ٨٢ . وينظر : المفضليات قصيدة ٢٥ ، صفحة ١٣٣ .

[١٠] الزغف : الدرع المحكمة اللينة . الفيوض : السابغــة . الهميان : كيس تجعل فيــه النفقة ويُشدّ على الوسط .

الغــرس : ما يغــرس في الأرض . اللعس : السـواد . لسان العــرب : مــادة (زغف) ، و(فيض) ، و(همن) ، و(غرس) ، و(لعس) .

[١١] الديوان ٧ .

فرعُ نهرٍ يَهْتَزُ في غُصنِ المجـ ـدِ غزيـرُ النـدى شديـد المحالِ

ويعمد الشاعر إلى تأكيد هذه الصفة – صفة الكـرم – فـي الملـكِ الأسود ، فأنّه يتسّع بمدلولها ، ويعرضها في صور شتى ، ومنهـا صـلته الدائمة بذوي القربى ، وهي الصفة التي عرف بها واشتهر بين النـاس ، والعطاء الدائم في الوقت الذي يعتذر منه الآخرون ، وكذلك عفـوه عـن العاني ، والفداء ، يقول الأعشى[١٢] :

وصلاتُ الأرحـام قـد علِمَ النا سُ وفَكّ الأسـرى من الأغـلالِ

وعطـاءٌ ، إذا سألتَ ، إذ العـذ رةُ كانـت عطيّـةَ البُخّـالِ

ويلتقي حسان بن ثابت مـع الأعـشى فـي مدحـه النعمـان بـن المنذر فيقول[١٣] :

وألفيتـه بحـرا كثيـرا فضوله جوادا متى يذكر له الخيـر يزدد

فالنعمان هو البحر في جوده ، بل ويزيدُ عن ذلك . وحسان بن ثابت نفسه يمدح الملك جبلة بن الأيهم بعطائه وجوده ، فيقول[١٤] :

يُعطـي الجزيلَ ولا يَراهُ عِنْدَه إلاّ كبعْـضِ عطيّـه المذمـومِ

وجود الملك متدفق ، لا ينضب ، يبحرُ في عبابه النـاس ، ينهلـون منه ، فالملك هو النهر الفرات المتدفق يمنح الخصب ويبـث فـي النـاس الحياة ، فيقول النابغة واصفا عطاء النعمان من قصيدة مدحه بها واعتذر له عمّا رماه به المنخل اليشكري وأبناء قريع مبرئا نفسه من أكاذيبهم[١٥] :

---

[١٢] الديوان ٩ .

[١٣] الديوان ١١٢ .

[١٤] الديوان ٣٢١ .

[١٥] الديوان ٥٨ . أواذيه : أمواجـه . العبرين : الشاطئين . الزبـد : مـا يطرحـه الـوادي إذا جـاش ماؤه واضطربت أمواجه . لسان العـرب : مـادة (أذذ) ، و (عبر) ، و(زبد) .

فما الفراتُ إذا هبّ الرياحُ له ترمي أواذيه العِبْرين بالزبَدِ

إلى أن يقول :

يوما ، بأجودَ منه سَيْبَ نافلةٍ ولا يحُولُ عطاءُ اليوم دونَ غدِ

أمّا الملك عند الشاعر عبيد بن الأبرص فجوده وكرمه غير محدودين ، بل هُما نبع متدفق يرفد الفرات فيزيده عطاءً ، يقول في الملك شراحيل بن عمرو بن معاوية الجون آكل المرار[١٦] :

وإلى شراحيل الهمام بنصرِه نصْرَ الأشاءِ سَرِيُّهُ مُسْترغَدُ

مَنْ سَيْبُه سَحُّ الفراتِ وحمِلْهُ يَزِنُ الجِبالَ ونيلهُ لا يَنْفَدُ

ويصوّر حسان بن ثابت كثرة جود ملوك الغساسنة وكرمهم ، فمنازلهم مفتوحة للأضياف والطرّاق والعُفاة ، حتى لتأنسَ كلابهم بالقصّاد ، فلا تهرّ على أحد ، وهم لا يسألون من يقِل عليهم أو يؤم ديارهم ، فيقول[١٧] :

يَغشون حتى ما تهرُّ كلابهم لا يسألون عن السواد المقبِلِ

يسقون مَنْ وردَ البريص عليهم " بردى " يصفّق بالرحيق السلسلِ

ومن كرم الملوك وتواضعهم ، يحكّمون العربي الشقيق الضيف في أموالهم ، ويقربونه في ضيافتهم ، فيشعر أنّه ربّ المنزل ، وأنّه انتقل من أهل إلى أهل ، فهذا النابغة الذبياني يمدح الملك النعمان فيقول[١٨] :

ملوكٌ وإخوانٌ ، إذا ما أتيتهم أُحَكَّمُ في أموالهم ، وأُقرّبُ

---

[١٦] الديوان قصيدة ١٣ صفحة ٤٥ .

[١٧] الديوان ٢٤٧ . وينظر : الشعر والشعراء ٢٩٦-٢٩٧ .

[١٨] الديوان ٢٤ وينظر : نشوة الطرب ٥٦٨/٢ .

فالملوك هم الذين يهبون العطاء ، وهم مصدر الدفء والضياء ، فالملك هو الشمس في كرمها وفيضها على الوجود وهكذا كان النعمان ، فهو شمس العطايا والأنعام على الناس ، وهو يدرك كل شيء ، ولا يفوت فضله إنسان ، فهو المنّة الإلهية والهبة الربانيّة ، يعبّر عن ذلك النابغة مادحا النعمان بن المنذر[١٩] :

ألم تَـرَ أن الله أعطاكَ سـورَةً ... تـرى كـلَّ ملك دونها يَتذبـذبُ
فأنـكَ شمسٌ والملوكُ كواكـبٌ ... إذا طلعتْ لم يبـدُ منهُنّ كوكـبُ

ويقرر النابغة الذبياني من خلال مدحه الملك عمرو بن الحارث الأصغر ، بأنّ كرم الملوك وجودهم شيمة يتفردون بها ، بل يرى أن الله قد اختصّهم بهذه الصفة دون غيرهم من الناس ، فانفردوا بها ، يقول[٢٠] :

لهم شيمـة لم يُعطِها الله غيـرَهم ... من الجود ، والأحلامُ غيرُ عَوازبِ[٢١]

ولم تكن صورة الملك في جوده وكرمه وعطائه فقط ، بل كانت صورة الشجاعة ماثلة أمام الشاعر الجاهلي ، فلا يعوقه الليل عمّا يهمّ به من أمر ، ولا يحول دون إنفاذه ، فهو كثير الخروج ، كثير الهجر لفراشه الناعم . وإذا كشّرت الحرب عن أنيابها لم يكن متوانيا ، وبقوته وشجاعته يكيد الأعداء ويطأهم بقوة وطء البعير المقيد الذي يدوس بكلتا يديه ، يقول الأعشى في النعمان بن المنذر[٢٢] :

---

[١٩] الديوان ٢٥ . وينظر : شعراء النصرانية قبل الإسلام ٦٥٦ .

[٢٠] الديوان ٣٤ .

[٢١] الأحلام : العقول ، العوازب : الواحد عازب وهو الغائب . لسان العرب : مادة (حلم) ، و(عزب) .

[٢٢] الديوان ١٨٩ .

إلى ملك لا يقطـــع الليـــلُ همّـــه خَـــروج تـــروكٌ للفراش الممهّدِ
طويـــل نجاد السيـــف يبعثُ هَمُّهُ نيـــام القطـــا بالليل في كل مهجد
فما وجدَتْك الحـــرب إذ مُرَّ نابُها على الأمر نعّاسا على كل مَرْصدِ
لعمـــرُ الذي حَجّـــتْ قريشٌ قطينَهُ لقد كدتهم كيـــد امرئ غير مُسْنَدِ

فهو الشجاع لديه من الجرأة والبسالة ما يجعله يقتحم ميدان الحرب بلا ترس يحميه ، بيده السيف يضرب به الأقران تاركا فيهم آثـــاره ، وهـــو لقوته ، حين يدخل المعركة لا يهجم إلاّ على رئيس القـــوم ، وشـــجاعته بلغت حدّا يفوق العادة ، أنه يخوض المعركة دون خوف أو وجل ، وإذا ما توسطها ترك الضعيف فيهم إلى القوي ، يقول حسان بن ثابت مادحا ملوك الغساسنة ، وهو في حضرة الملك الغساني عمرو بن الحارث[٢٣] :

لله درّ عصابـــــة نادمتُهـــــم يومـــا بجلقّ فـــي الزمـــان الأولِ
الضاربون الكبش يَبْرقُ بَيْضُه ضربـــا يطيـــح لهُ بنـــان المفصل
والخالطـــون فقيرهم بغنيّهـــم والمنعمون على الضعيف المُرمِل[٢٤]

فهم لكرم أخلاقهم لا يفرقون بين الغنى والفقر ، فهم يخـــالطون مـــن تواضعهم الفقير المعدم .

وامتدّت الشجاعة من الملك إلى جيشه ، فجيشه قوي قادر على إبـــادة الأعداء ، فهو غضب القدر ، بل أن الثقة بشجاعة الملك وجيشه امتدّت إلى

---

[٢٣] الديوان ٢٤٧ .

[٢٤] جلقّ : موضع قرب دمشق . البيض : جمع بيضة وهي الخوذة . بنان المفصـــل : أطـــراف الأصابـــع .
لسان العرب : مادة (جلق) ، و(بيض) ، و(بنن) .

طيور السماء التي تصاحبهم في غزواتهم ، لثقتها الأكيدة في انتصار الملك على أعدائه ، وقد سجل ذلك النابغة في مدحه عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن أبي شمِّرٍ ، حين توجّه إلى الشام ، فهو يقول[٢٥] :

وثقتُ له بالنصرِ إذ قيل قد غزَتْ ... كتائبُ من غسّان غيرُ أشائبِ
بنو عمّه دُنيا ، وعمرو بن عامر ... أولئك قومٌ ، بأسُهم غيرُ كاذبِ
إذ ما غزوا بالجيش حلّق فوقهم ... عصائبُ طير ، تهتدي بعصائب
تراهُنّ خلفَ القوم خُزْرا عيونها ... جلوسَ الشيوخ في ثياب المرانب
جوانحَ قد أيقنَّ أن قبيله ... إذا ما التقى الجمعان أولُ غالبِ

ومن مكانة الملوك وعظمتهم وسيادتهم التحياتُ المقدّمة لهم ، إذ كانت لهم تحيات تختلف عن تحيات سائر الناس ، تدلل على مكانتهم وتليق بهم ، ولها ألفاظها الخاصة بها . فقد كان العرب في الجاهلية يخصّون ملوكهم بـ ((أبيتَ اللعن)) ، أي أبيت أن تأتي من الأخلاق المذمومة ما تُلعن ، وهي تحية ملوك لخم وجذام . وكانت تحيّة ملوك غسان ((يا خيرَ الفتيان)) ، وتحيّة بعض القبائل ((أسلم كثيرا)) ، من ذلك قول النابغة مخاطبا النعمان بن المنذر[٢٦] :

أتاني – أبيت اللعن – أنك لمتني ... وتلك التي أهتمُّ منها وأنْصَبُ

---

[٢٥] الديوان ٢٩-٣١ .

[٢٦] الديوان ٢٣ .

ويقول في موضع آخر[٢٧] :-

أتاني – أبيتَ اللعن – أنّك لمتني وتلك التي تَسْتَكُّ منها المسامعُ

ويقول الأعشى مادحا الأسود بن المنذر اللخمي لإطلاق سراح قومه[٢٨] :

أريحِيٌّ صلْتٌ يظلُّ لـه النقـو مُ ركـودا قيامَهـم للهـلالِ

وفي ألقاب الملوك ما يدل على المنزلة والمكانة العالية ، فقد كانوا يلقبون بالأرباب . وقرّر امرؤ القيس هذه الحقيقة حين أسبغ هذه التسمية على عمّه الملك شرحبيل في معرض هجائه من كان سببا في الإحجام عن نصرته ، وذلك في قوله[٢٩] :

ألا قبحّ الله البراجمَ كلّها وجدّع يربوعا وعفّر دارما

فما قاتلوا عن ربّهم وربيبهم ولا آذنوا جارا فيظعنَ سالما

ويقول الحارث بن حلزّة في معرض مدحه الملك عمرو بن هند[٣٠] :

وهو الربُّ والشهيدُ على يو م الحِيارين والبلاءُ بلاءُ

ومن الإقرار بمكانة الملوك أن يوصفوا بالاقتدار على ما يعجز عنه الناس ، وقد عبرّ الملوك أنفسهم والشعراء عن هذا التمايز في المكانة بين الملوك والعامة ، فهذا امرؤ القيس يفتخر بنسبه الملكي فيقول[٣١] :

---

[٢٧] المصدر نفسه : ١٢٣ .

[٢٨] الديوان قصيدة رقم ١ صفحة ٩ . وينظر : جمهرة أشعار العرب ١٢٣ .

[٢٩] الديوان ١٩ .

[٣٠] الديوان ٥٥ .

[٣١] الديوان ٢٧٩ .

ما يُنكـــر الناس منّا حين نملكهم كانوا عبيـــدا وكنّا نحـــن أربابا

نحن الملوك وأبناء الملوك لنـــا ملك عاش به هذا النـــاس أحقابا

ويقرّ عدي بن زيد بأن الملوك أخذوا هذه المكانة بقـــضاء مـــن الله ، ومنهم النعمان بن المنذر ، الـــذي خـــصّه الله وفـــضّله علـــى النـــاس ، فهو يقول[٣٢] :

أجـــــل أن الله قـــد فضّلكـــم فـــوق مـــن أحكأ صُلْبـــا بأزارِ

وللملوك على الناس أياد عظيمة ، لا يقدر على مثلها أحد من الناس ، فهذا النابغة الذبياني يقول في النعمان بن المنذر[٣٣] :

ولا أرى فاعلا في الناس يُشبهه ولا أحُاشي من الأقـــوام من أحدِ

إلاّ سليمـــانَ إذ قـــال الإلـــهُ له : قمْ في البريّـــة فاحدُدها عن الفندِ

فالنعمانُ ملك ارتضي لحكم الناس ، فقام بأعمال تشبه أعمال الأنبياء المكلفين من الله بإقامة العدل ، وبعمران الأرض ، وإصلاح المجتمع ولأنّ النعمان كذلك ، فقد بوّأه الله هذه المنزلة العظيمة .

وأسبـــغ علقمة الفحل على الحارث بن جبلة صفات مغايـــرة لصفات البشـــر ونسب إليه صفات الملائكة ، فهو يقول[٣٤] :

ولســـتَ لأنسِـــيّ ولكن لمَـــلاكٍ تنزّلَ من جـــوّ السماء يَصُوبُ

---

[٣٢] الديوان قصيدة ١٧ صفحة ٩٤ .

[٣٣] الديوان ٥٢ . وينظر : شعراء النصرانية قبل الإسلام ٦٦٣ .

[٣٤] الديوان ٨٣ .

فالحارث ليس بولد إنسان ، وإنما هو ملك نزل من السماء ، فعالـه عظيمة لا يقدر على مثلها أحد . أنّه وجود مغاير للبشر ، فيه طهارة الملائكة وقدسيّة التنزيل من السماء .

صورة الملك في الحكمة :

أدرك الشاعر الجاهلي أنّ الموت نهاية الحياة ، هذا الموت الذي يفسد اللذّات ، وينهي الحياة ، فوقف مستسلما أمامه باحثا لنفسه عن فلسفة في الحياة ، وقد رأى الشاعر الملوك والعظماء الذين كانت في أيديهم كلّ أسباب الحياة ، ورأى أسباب المنعة والقوة عندهم ، كما رآهم وهم يعجزون عن حماية أنفسهم من الموت ، فكيف به وهو لا يملك شيئا ؟ ! .

وهذا لبيد بن ربيعة يتفكر في حياة الملوك الذين كانوا قبله ، ثم عدت عليهم عوادي الدهر ، فكان لابُدّ أن ينظر إلى الأمم السابقة ، لاسيما العظماء والملوك ، فهو يقول[٣٥] :

له الملك في ضاحي مَعدّ وأسلَمتْ ... إليه العبادُ كلّها ما يحاولُ

إذا مسَّ أسار الطيور صفت له ... مشعشعةً مما تُعتَق بابلُ

وغسانُ ذلّت يومَ جلّق ذلّةً ... بسيدّها والأريحيّ المنازلُ

رعى خرزات الملكِ عشرين حجة ... وعشرينَ ، حتى فاد والشيبُ شاملُ

فبادوا فما أمسى على الأرض منهم ... لعمرك إلا أن نُخبرّ سائل

وأمسى كأحلام النيام نعيمُهم ... وأي نعيم خلته لا يُزايل

---

[٣٥] الديوان ١٤٥ ، ١٤٩ . وينظر : شعراء الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنيّة ١٧ ، ١٨ .

ويقول أيضا ذاكرا جبروت الموت آخذا العبرة ممنّ فنى من الملوك[٣٦] :

غلَبَ الليالي خلْفَ آل مُحرّقٍ وكما فعلْن بتُبّع وبهرقلِ
وغلبنَ أبرهة الذي ألفيته قد كان خلّد فوق غُرفة موكل
والحارثُ الحرّاب خلّى عاقلا دارا أقام بها ولم يتنقّلِ

وينظر الأسود بن يعفر في حياة الملوك الذين تخيّروا أجمل بقاع الدنيا وأطيبها ، فسكنوها وشيّدوا القصور فيها ، واقتنصوا من متاع الحياة ولذتها ما شاء لهم وما استطاعوا . عاشوا وتمتعوا بملك عظيم ، ثم راحوا وتركوه أطلالا تذروها الرياح ، فإذا النعيم يصير إلى فناء ، فهو يقول[٣٧] :

ماذا أؤمل بَعد آلِ مُحرِّقٍ تركوا منازلهم وبعدَ أيادِ
أهلِ الخورنق والسدير وبارقٍ والقصر ذي الشُرفاتِ من سنداد
أرضا تخيرها لدارِ أبيهم كعبُ بَنُ مامَة وابنُ أمِّ دؤادِ
جَرت الرياحُ على مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعادِ
ولقد غنَّوا فيها بأنْعم عيشةٍ في ظلّ ملْكٍ ثابت الأوتادِ
نزلوا بأنْقُرةٍ يَسيلُ عليهم ماءُ الفرات يجيءُ من أطوادِ
أين الذين بنوا فطال بناؤهم وتمتعوا بالأهل والأولادِ
فإذا النعيمُ وكلّ ما يُلهى به يوما يَصيرُ إلى بِلى ونفَادِ

---

[٣٦] الديوان ١٧١ ، ١٧٢ .

[٣٧] الديوان ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ . وينظر المفضليات ٢١٧ .

وما دام الأمرُ كذلك ، ولأنّ الموت نهاية كل إنسان ، فلابدّ من الزهد في الحياة ، ولابُدّ أن يكون الملوك العظماء القدوة في ذلك ، وإياهم عنى عدي بن زيد ، فهو يقول عن النعمان بن المنذر[٣٨] :

وتأملْ ربَّ الخورنق إذ أشـ ... رف يوما وللهدى تفكيرُ
سرَّه مالُه وكثرة ما يملـ ... كُ والبحرُ مُعْرِضا والسدير
فارعوى قلبُه وقال وما غبـ ... طةُ حيّ إلى الممات يَصيرُ

ويؤكد ذلك زهير بن أبي سلمى في رثائه للنعمان بن المنذر ذاكرا ما به من بأس وقوة وشجاعة ، ومتعظا بالملوك السابقين فيقول[٣٩] :

ألم ترَ أن الله أهلك تبّعا ... وأهلك لقمان بن عاد وعاديا
وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى ... وفرعون ، جبّارا طغى والنجاشيا
ألا لا أرى ذا إمّةٍ أصبحتْ به ... فتتركه الأيام ، وهي كما هيا
ألم ترَ للنعمان ، كان بنجوة ... من الشرّ ، لو أنّ امرأ كان ناجيا

صورة الملك في الهجاء :

لم تكن صلة الشاعر بالملك صلة ولاء وانتماء دائما ، بل كان هناك من الشعراء من أعلن تمرده على الملوك وجعل من فنه الشعري وسيلة للنيل من الملك ومكانته . وقد تعدّدت دواعي هجاء الملوك في العصر الجاهلي ، ومن ذلك الظلم والجور الذي يمثله عمرو بن هند الذي كان شديد الزهو بنفسه مغاليا في ازدراء الناس ، حتى قسّم حياته يومين : يوم

---

[٣٨] الديوان القصيدة رقم ١٦ صفحة ٨٩ .

[٣٩] الديوان ١٠٧ ، ١٠٨ .

بؤس يركب فيه للصيد يقتل أول من يلقاه . ويوم نعيم يخلو فيه لنفسه ، والناس تقف ببابه ، فإن اشتهى حديث رجل منهم أذن له . هذا الظلم كان مدعاة لتمرّد العامة عليه ، ومن ضمنهم شاعرنا طرفة بن العبد الذي وصفه بالحمق والظلم واللؤم ، وشكا ما كان يلقى منه ، ومن قسمته الزمان بين النحس والسعد على نحوٍ أرعن فهو يقول[٤٠] :

قسَمْتَ الدهرَ في زمنٍ رخيّ ... كذاك الحكمُ يَقْصِدُ أو يَجُورُ
لنا يومٌ وللكروان يومٌ ... تطيرُ البائساتُ ولا نطيرُ
فأما يومُهنّ فيومُ نحسٍ ... تُطاردُهنّ بالحدبِ الصقُور
وأما يومُنا فنظلُّ رَكْبا ... وُقوفا ما نَحُلُّ وما نَسيرُ

وهذا الظلم دفع بالشاعر عمرو بن كلثوم للتمرد على الملك عمرو بن هند ، وقتله حين حاولت أم الملك إذلال أمه من قصيدته[٤١] :

بأيّ مشيئةٍ عمرو بن هند ... تُطيعُ بنا الوُشاةَ وتَزدرينا

ويصف سُويد بن حَذّاق الشّني قصر عمرو بن هند بأنه مليء بالبقِ والحُمى والمصائب ، ثم يصف جوره وظلمه ، فهو يقول[٤٢] :

فآليتُ لا آتي السديرَ وأهله ... وعمرو بن هند يعتدي ويجورُ
به البقّ والحُمى وكلّ مصيبةٍ ... ولو جاء منه بالحياة بشيرُ

---

(٤٠) الديوان ١٠٨ وينظر : شعراء النصرانية ٣٠٥ ، طرفة بن العبد شاعر البحرين ١٧٧ .
(٤١) الديوان ٧٩ .
(٤٢) الشعر والشعراء ٣٧٥/١ ، نشوة الطرب ٢٧٩/١ .

واتّخذ الملوك الترهيب وسيلة للسيطرة على العامة ، فهذا عمرو بن هند يحرق بني تميم بالنار ، وكان بنو دارم قد قتلوا أخاه أسعد بن المنذر ، فحلف أن يقتل منهم مائة بالنار ، فهجم عليهم يوم أوارة الثاني ، وحُمل له تسعة وتسعون فرماهم في النار ، فعلا لهبها ودخانها ، فرأى ذلك أحد البراجم ، فظنّ أنها قِرى ، فأقبل إليها ، فجيء به إلى عمرو ، فتمّم به المائة ورمى به في النار[٤٣] وكان هذا ظلما عظيما أصاب العامة وأحسوا به وسجّله عامر بن الطفيل في وصف ملك الحيرة[٤٤] :

أنْحى علينا بأظفارٍ فطوّقنا طوْق الحمَامِ باتعاسٍ وإرغامِ

ومن ظلم الملوك إجبارُ الناسِ على دفع الضرائب والإتاوات المرهقة لهم وقد عبّر عن هذا الظلم جابر بن حنّي التغلبي ، فهو يقول[٤٥] :

وفي كلّ أسواقِ العراق إتاوة وفي كلّ ما باع امرؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ

ألا تستحي منّا ملوكٌ وتتّقي محارِمَنا لا يَبْوُؤ الدمُ بالدمِ

فكان شعره صرخة استنكار وصيحة تهديد للملوك ، فعزة العربي وأنفته لا تقبل الخضوع والذل وفي ذلك يقول يزيد الشنّي يخاطب النعمان بن المنذر[٤٦] :

---

[٤٣] نشوة الطرب ٢٧٨/١ .

[٤٤] الديوان ١٥١ .

[٤٥] ينظر : المفضليات ٢١١ ، شعراء النصرانية ١٩٠ .

[٤٦] المفضليات ٢٩٨ . وينظر : الانتماء في الشعر الجاهلي ٢٩٦ .

أكـلٌ لئيـــم منكـم ومعلهـج يَعُـدُّ علينـا غـارةً فخبُوســا
ألا ابــن المعلــى خلتنا وحسبتنا صراريّ نُعطي الماكسين مُكوسَا[٤٧]

ومن فعل الملوك إثارةُ الفرقة بين العامة وزرع بذور الفتنة بينهم حتى ينشغلوا بمشاكلهم ، ويصرفوا طاقاتهم في النزاعات الداخلية بينهم ، ويبقى الملوك في أمان من باب فرّق تسد . وقد أدرك الشعراء هــذا المغــزى ، فألهب في صدورهم كراهية الملوك . وهذا سويد الشُنّي يهجو عمرو بــن هند وقابوس بقوله[٤٨] :

جزى الله قابــوس بن هنــد بفعلهِ بنــا ، وأخــاه غَــدْرةً وأثامــا
بما فجــرًا يــومَ العُطيــف وفرّقــا قبائــل أحلافــا وحيًّــا حَرامــا
لعلّ لبُــونَ المُلكِ تمنــعُ دَرَّهــا ويَبْعَثُ صرْفُ الدهــر قوما نياما

وهذا طرفة بن العبد يهجو عمرو بن هند ويصفه باللؤم ، ويعبِّرُ عن لؤمه من خلال بخله ، إذ يبقى سربالُه نظيفا ، وفي هذا كناية عن عــدم إكرام الضيف ، وتقديم الطعام له ، فهو يقول[٤٩] :

إن قُلْتَ : نصْرٌ ، فنصرٌ كان شرّ فتى قِدْما وأبيضَهــمُ سربــالَ طبّــاخِ
ما في المعانــي لكم ظِــلٌّ ولا ورَقٌ وفي المخــازي لكم أسنــاخُ أسناخ

---

[٤٧] المعلهج : الذي ليس بخالص . والخبوس : الظلم . الــصراري : الملاحــون . الماكس : الجانــي . لسان لعرب : مادة (علهج) ، و(خبس) ، و(صــرر) ، و(مكس) .

[٤٨] الشعر والشعراء ٣٧٥/١ .

[٤٩] الديوان ١٥٠ ، ١٥١ .

إن قُسّـمَ المجد ، أكدى في سراتكم أو قُسّـم اللؤم ، فضّلْتُـم بأشيـاخ

ويتأصل اللؤم في النعمان بن المنذر ممتّدا إليه من أخوالـهِ ، وكأنّـه رضعه من لبان أمه في وصف عمرو بن كلثوم لهذا الملك ، ويتصفُ من جهة الأب بالعجز والهوان ، فيقول في هجائه[٥٠] :

لحـا اللهُ أدنانـا إلـى اللؤم زُلفـةً وألأمنـا خـالا وأعجزنـا أبـا

وهذا المتلمس الضبعي يهجو عمرو بن هند بالغدر والخيانـة وعـدم الوفاء بما قطع من عهد للناس ، واصفا أخلاق عهده[٥١] :

شـرٌّ الملـوك وشرّهـا حسبـا في النـاس من علمـوا ومن جهلوا

الغـدرُ والآفـاتُ شيمتـهُ فافهـم فعرقـوبٌ لـه مَثَـلُ

ومثله فعل الشاعر يزيد الشنّي في وصف الملك النعمان بن المنـذر ، ونعته بالخيانة والغدر والخداع ، فهو يقول[٥٢] :

نعمـانُ إنـك خائـنٌ خـدِعٌ يُخفـي ضميـركَ غيـر ما تُبـدي

ويؤكد أبو قردودة الطائي في رثائه لابن عمـار ، نـديم النعمـان ، وقتيله ، أن الملوك لا يؤمن جانبهم في قوله[٥٣] :

إنـي نهيـتُ ابن عمّـارٍ وقلتُ له لا تأمنـن أحمـرَ العينين والشَعَـره

أنّ الملوك متـى تنـزل بساحتهـم تطِـر بنارك من نيرانهـم شـرَرَه

---

[٥٠] الديوان ٢٥ .

[٥١] الديوان ١٢٩ .

[٥٢] المفضليات ٢٩٦ .

[٥٣] البيان والتبيين ٢٢٣/١ .

صورة الملك في الرثاء :

الرثاء من فنون الشعر الصادقة ؛ لأنّه يخاطب عزيزا فارق الحياة ، أو ملكا كان ملء السمع والبصر ، فهو ينبع من حزن الشاعر على إنسان قطع الموت صلته بالأحياء ، وقد يكون الرثاء نابعا من الإحساس بالضعف أمام الموت .

وقد عجب الشعراء بالملوك فمدحوهم ووضعوهم في مصاف الآلهة ، كذلك أنزلوهم تلك المنزلة في الرثاء ، فرثوهم بالصفات نفسها التي مدحوهم بها ، وكأنّي بهم حين يذكرون هذه الصفات في الرثاء يرثون الصفات نفسها ، فكأنّ الصفة تموت بموت الملك وتندثر بوفاته .

وصفات الملوك يليق بها رثاء جليل متميّز ، فهم لم يكونوا كعامّة الناس فكان الرثاء أشدّ اجعة وأكثر ألما يغلفه إجلال الملك المرثي وإكباره فالشعراء في حضرة الملك ، حتى وإنْ كان ميّتا[٥٤] .

وبما أنّ الملك هو الحياة والربيع ، فالنابغة في رثائه النعمان بن الحارث الغساني يزهد في الحياة ؛ لأن حياته بعد ذوي الفضل ضجر قاتل ، فهو يقول[٥٥] :

فلا تبعدَنْ إنّ المنية موعدٌ وكل امرئ يوما به الحالُ زائلُ
فما كان بين الخير لو جاء سالما أبو حُجُرٍ ، إلا ليالٍ قلائل
فإن تحي لا أملَلْ حياتي وإنْ تمت فما في حياتي بعد موتك طائل

---

[٥٤] شعر الرثاء في العصر الجاهلي ١١ ، ٩٧ .
[٥٥] الديوان ١٤١ .

ولأنّه الملك صاحب السيادة والمكانة ؛ ولأنه إله أو شبيه بـه نعـاه الناس جميعا ، فهذا المهلهل يرثي أخاه الملك كليبا فيقول[٥٦] :

نعـى النعـاةُ كليبـا لي فقلتُ لهم مادت بنا الأرض أم مادتْ رواسيها

وهو سيّد الناس ، ليس له مثيل ، وهو يعادل ألفا من فضلاء القـوم ، وقد أضاف المهلهل هذا المعنى في رثاء أخيه كليب[٥٧] :

قتلتُـم سيّـدَ النـاس ومَـنْ ليس بـذي مِثْـلِ
وقلتُـم كفـؤه رجـلٌ وليـس الـرأسُ كالرجـل
وليـس الرجُـلُ الماجـ ـدُ مِثـل الرجُـلِ النـذلِ
فتـى كـان كألـف مـن ذوي الأنعـام والفضـلِ

وهو الفارس الشجاع ، إذ كانت الشجاعة من أكثـر الخـصال التـي ترددت على ألسنة الشعراء ، وهذا طبيعي في مجتمع يؤمن بالقوة ويُربّـى الفرد فيه ليكون حاميا لقبيلته ، أكفاء لمن ينازلهم فـي سـاحات القتـال . فإذا قتل حامي العشيرة ظل القوم يذكرون تلك الخصلة التي كانـت مـن أسباب بقائهم .

وليس للملك كفء في المنزلة والمكانة أيضا ، فهو ذو منزلة عظيمة لن يدركها أحد ، بل أنّ إدراكها من قبيل المعجزة التي لن تتحقـق مهمـا حاول الإنسان ، أو ليس الملك إلها أرسله الله ، كما كانوا يعتقدون ؟ فهـذا امرؤ القيس يرثي آباءه وأجداده في وقعته ببني أسد[٥٨] :

---

[٥٦] الديوان ٩١ .

[٥٧] الديوان ٦٩ . وينظر : أيام العرب في الجاهلية ١٦٦ .

[٥٨] الديوان ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

قالتْ فُطيمةُ حلِّ شِعْرك مدحـــة أفبعـــدَ كنـــدة تَمدحَـــنّ قتيـــلا
وهمُ الكرامُ بنو الخضارِمة العُلا لسميـــدعٍ أكـــرمْ بذاك نجيـــلا
يا أيها الساعـــي ليُـــدْرِك مجدَنا ثكلتك أمُـــكَ هل تـــردّ قتيـــلا
هل ترقيـــنّ إلـــى السمـــاء بسُلمّ ولترجعنّ إلـــى العزيـــز ذليلا
سائل بنا مَلَكَ الملُوك إذا التقـــوا عنّـــا وعنكم لاتعـــاشَ جهُـــولا
مِنّا الذي مَلَك المعاشـــر عَنْـــوة مَلَك القضـــاء فسَلْ بذاك عَقُولا

فمكانة آباء الشاعر تُجلّه عن الدموع ، بل فاخر به ، وكذّب ما أتـــاه من خبر عن مقتله ، وحين تبيّن وجه الحق ثقل عليه الرزء ، وراح يباهي بموضع أبيه من الملك ، ويصور القبائل كأنّها خدمٌ له ينتظرون عطـــاءه ، فيقول[٥٩] :

أرقـــت لبـــرق بليـــل أهـــــل يضـــيء سنـــاه بأعلى الجبـــل
أتانـــي حديـــثٌ فكذّبتـــــــه بأمـــرٍ تزعـــزع منـــه القلـــل
بقتـــل بنـــي أســـــد ربّهـــم ألا كلّ شـــيء ســـــواه جلـــل
فأيـــن ربيعـــــة عـــن ربّهـــا وأين تميـــم وأيـــن الخـــــول
ألا يحضـــرون لـــدى بابـــــه كما يحضـــرون إذا ما أكـــــل

فموت الملك يعني توقف الحياة واختلال الكون ، فقد أظلمت الـــشمس لدى المهلهل فلا تريد طلوعا[٦٠] :

لمّا نعـــى الناعـــي كليبا أظلمت شمسُ النهار فما تريـــدُ طُلوعا

---

[٥٩] الديوان ٢٦١ .

[٦٠] الديوان ٥٠ .

وهذه الصورة مكررة عند عنترة في رثائه الملك زهير بن جذيمة العبسي ، فهو يقول[٦١] :

خُسِف البدرُ حين كان تماما وخَفى نُوره فعادَ ظلاما
ودراري النجوم غارت وغابت وضياءُ الآفاق صار قتاما
حين قالوا : زُهيرُ ولىّ قتيلا خيّم الحزن عندنا وأقاما

صورة الملك في الفخر :

ومن الفخر نطلّ على مجموعة من المثل التي كان الجاهلي يعتزّ بها ، وقد اتسّعت لتشمل حماية الجار ونجدة الملهوف ، ومضاء العزيمة ، والقدرة على تحمّل الشدائد والحزم والإباء ، وصلة الرحم ، كما وقفوا في وجه الملوك حين جاروا وارتحلوا عنهم ، ووفدوا عليهم حين ارتضوا أن يعاملوا القوم معاملة الأخ لأخيه ، وكل هذا يستلزم القوة ، ففخروا بها.

وقد يروق لبعض الشعراء أن يفاخر الملوك وأن يجاهر بالخروج عن سلطانهم ، ويُعدّ هذا ضربا من الأنفة والحمية . فهذا عمرو بن كلثوم يقتل الملك عمرو بن هند بعد أن حاولت أم الملك استخدام أمه ، ويفتخر بمضاء عزيمة قومه ، وقدرتهم ، وبأسهم ، فهم يقدمون على الأعداء برايـاتهم البيضاء ولا يعودون إلاّ وقد نهلوا من دماء الأعداء حتى صارت الرايات حمرا لكثرة القتل ، وهم قد ورثوا المجد كابرا عن كابر ، يدافعون عنه ، ويحمونه ، فيقول عمرو بن كلثوم[٦٢] :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نُخبّرك اليقينا

---

[٦١] الديوان ٢٧٩ .

[٦٢] الديوان ٧١ ، ٧٥ .

بأنـا نُـورد الرايـات بيضـا ونُصدرّهُـنّ حُمـرا قد رَوينـا
ورثنـا المجد قـد علمتْ مَعـدٌّ نُطاعِـنُ دُونَـه حتـى يَبينـا

ويفتخرُ بعصيان الملوك وقتلهم ، فيقول[٦٣] :

وأيـامٍ لنـا غُـرّ طـوالٍ عصينـا الملـك فيها أنْ نَدينـا
وسيـد معشـر قـد توّجـوه بتـاج الملك يحمـي المُحجَرينا
تركنـا الخيـل عاكفـة عليـه مقلـدةً أعنّتهـا صُفونـا

وجاء فخـر جابـر بن حنّي التغلبي موصولا بفخـر ابن كلثـوم ، فهو يزعم أنّ الملوك لا يجرؤون على انتهاك شـرف تغلـب لمنعتهـا ، وهيبتها المفروضة على الناس ، فهذه القبيلـة تعـايش الملـوك معايـشة الأنداد ، تسالم العادل ، وتحارب الجائر ، ويفتخر بأنّ قتل الملوك عنـدهم ليس حراما ولا محالا ، ولطالما أنزلوا الحتف بـالملوك الـذين احتقـروا قوتهم ، فيقول[٦٤] :

ألا تستَحـي منّـا ملـوكٌ وتتّقي محارمنـا لا يبـوؤُ الـدم بالـدمِ
نُعاطي الملوك السِلْمَ ما قَصُدوا بنا وليـس علينـا قتلهُـم بمحـرّم

ومثله قول حاتم الطائي[٦٥] :

وأقسمْتُ لا أعُطي مليكا ظُلامـةً وحولي عَـدِيّ كهلها وغريرهـا

وقول المتلمس الضبعي لعمرو بن هند[٦٦] :

---

[٦٣] الديوان ٧١ ، ٧٢ .
[٦٤] المفضليات ٢١١ .
[٦٥] الديوان ٩١ .
[٦٦] الديوان ١٢٥ .

فلئـــن تعِـــشْ فليبلُغـــــنْ أرماحُنـــا منـــكَ المُخَنَّـــــقْ

ويملأ عبيد بن الأبرص الدنيا فخرا بعظيم صنيع قومه ، وقد هزمـوا الملك حجر ابن كندة وقتلوه ، وحقّ لهم أن يفتخروا ، وقد علوا فوق الملك وضرّجوه بدمائه ، من قصيدة يقول فيها[٦٧] :

إنـــا إذا عـــضَّ الثقـــــا فُ بـرأس صعدتنـا لوينـــا
نحمـــي حقيقتنـا وبعـــــ ضُ القـوم يسقـطُ بيـن بَيْنـا
هّـلا سألـتَ جمـــــوع كنـــ دة إذ تولـوا : أيـن أيْنـــا
أيـام نضـــرب هامهـــــم ببواتـرٍ حتـــى انحنَينـــا
وجمـــــوعَ غسّـــانَ الملـــو كَ أتينهُـم وقـد انطوَينـــا

وهذا المرقش الأكبر يصرخ بوجه المنذر ، ويبدي من الجرأة والقدرة ما يثبت قوته ، ويبيّن له أنه لا يكترثُ بظلمه ، وأشاد بإبائـه وشـجاعته وعدم استسلامه ، فيقول من قصيدة له[٦٨] :

أبلغا المُنـذر المنقّـبَ عنّـــي غيـرَ مُسْتَعتـبٍ ولا مُسْتعيـنِ
لات هنا وليتنـي طـرفَ الـزّ جّ وأهلي بالشـأم ذات القـرون
بامـرئٍ ما فعلْتَ عـفَّ يـؤوس صدّقتـه المُنى لعـوضِ الحينِ
غيـر مُسْتَسلِمٍ إذا اعتصـرَ العا جـزُ بالسكتِ في ظلالِ الهـونِ
يُعْمِلُ البـازل المجُـدّةَ بالرحـ ـلِ تشكّـى النَجـادَ بعدَ الحُزونِ

وهذا عنترة العبسي يفتخر بقومه ، ويهدّد النعمان بن المنذر بأنّ يـده ستطوله وأخاه يوما ما ، مصورا نفسه كالأفعى الملساء في أنيابها المـوت

---

[٦٧] الديوان ١٣٦ ، ١٣٧ . وينظر : الشعر والشعراء ٢٥٩ .

[٦٨] المفضليات القصيدة ٤٨ صفحة ٢٢٨ .

والهلاك ، مفتخرا بشجاعته ، فهو الفتى الذي يدخل المعركة غير هيّاب ، لأنّه سيعود منها ورمحه مخضّب . وكان أخوه الأسود بن المنذر قد أجار خالد بن جعفر بن كلاب قاتل زهر بن جذيمة بن رواحة العبسي[٦٩] :

إن كنتَ تعلم يا نعمانُ أن يدي ... قصيرةٌ عنك فالأيامُ تتقلبُ
اليوم تعلم يا نعمان ، أيّ فتى ... يلقى أخاك الذي قد غرّه العُصَبُ
إنّ الأفاعي وإن لانت ملامسها ... عند التقلّب في أنيابها العَطَبُ
فتىً يخوضُ غمارَ الحرب مبتسما ... وينثني ، وسنانُ الرمح مختضب

ومن الافتخار على الملوك وجدنا النقيض لذلك ، وهو الافتخار بالملوك والإقرار بالمكانة الخاصة لهم ، وبالانتساب إليهم والانتماء إليهم فهم الأجواد المكرمون والشجعان القادرون ، الذين من صفاتهم ، حمل الديات ، وفك الأسرى . يقول امرؤ القيس[٧٠] :

وكندة قومي ملوكُ البلادِ ... فأنمي إليهم إذا ما انتميتُ
كرامُ المقارئ حِسانُ الوجوه ... فلن يفضحوني إذا ما اغتزيت
بحمل الديات ، وَفكِّ العُناةِ ... وقتْلِ الكُماةِ ، مَعدّا علوت

وكما افتخر امرؤ القيس بانتسابه للملوك ، افتخر حسّان بن ثابت بملوك الغساسنة ، وبانتسابه إليهم ، فهو يقول[٧١] :

منهمُ أصلي فمن يفخرْ به ... يعرفُ الناسُ بفخر المفتَخِرْ
نحن أهلُ العزِّ والمجد معا ... غيَرُ أنكاسٍ ولا ميلٌ عُسُر

---

[٦٩] الديوان ١١٩ .
[٧٠] الديوان ٣١٩ .
[٧١] الديوان ١٧٠ .

فسلـــوا عنّـــا وعـــن أفعالنـــا كلُّ قـــومٍ عندهـــم عِلْمُ الخَبـــر

ومن الوفادة على الملوك وهو الشرف العظيم والمجد العـــالي يقـــول حسان بن ثابت في ذلك[٧٢] :

وتزورُ أبوابَ الملوك ركابُنـــا ومتى نُحكَّم في البريّـــةِ نَعْـــدِلِ

ويفتخر الحصين بن الحمام المريّ بأنّ فتيان قومه يلبسون في الحرب مما كساهم به عمرو بن هند ملك الحيرة ، فيقول[٧٣] :

عليهنّ فتيانٌ كساهـــم محـــرِّقٌ وكان إذا يكســـو أجـــاد وأكرما

صفائح بُصرى اخلصَتْها قيونُها ومُطَّردا مِن نســـج داود مُبْهَما

صورة الملك في الاعتذار :

وفيه تتداخل عاطفة الخوف مع عاطفة الشكر والرجاء ، غايته إخماد ثورة الغضب الساخطة في نفس المعتذر إليه والحيلولة بينه وبين العقوبـــة أو العتب من خلال تبرئة نفسه ؛ حتى يستطيع إصـــلاح الحـــال ؛ لتعـــودَ الأمور إلى ما كانت عليه ، وقد فرضت علـــى الـــشاعر أن يـــسلك فـــي اعتذاره مسلكا يتشابه إلى حدّ بعيد من حيث المعاني ، فيتخيروا من معاني المدح ما يكون وثيق الصلة بطبيعة الموقف الاعتذاري ، وأسرعها نفـــوذا إلى المتلقي .

فمن دوافع الاعتذار الندم على مفارقة عظيم أجبره الوشاة والحـــسّاد على مفارقته والرغبة في العودة إلى نعيم ذاق الشاعر حلاوته ، وشقّ عليه أن يخرج نفسه منه ، والرغبة في تطهير النفس وإبرائها من أسباب الكدر

---

[٧٢] الديوان : ٢٥٠ .

[٧٣] المفضليات قصيدة ١٢ صفحة ٦٦ .

وآلامها ، والرهبة من نقمة هذا الملك العظيم ، فهذا النابغة الذبياني يبعث بقصائده معتذرا للنعمان بن المنذر عن مقامه بين الغساسنة مظهرا قلقه من سوء التفاهم والقطيعة التي بينهما ، فيقول[٧٤] :

ألم ترَ أنّ الله أعطاك سورةً ترى كلّ مَلْكٍ دونها يتذبذبُ

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبدُ منهنّ كوكب

فالنعمان لا يشبهه أو يناظره أحد من الملوك ، فأبهته وعظمته ، وسلطانه تُغطي على الآخرين ، وتُخفي معالمهم ، كالشمس حينما تسطع تتلاشى أمامها الكواكب . وهو أعظم من يعفو عن الذنوب ، ويصفح عن الهفوات ، فهو أهل الرضا والإكرام ، وهو قاض عادل يعرف كيف يرد الظلامة وينصف الظنين ، فيقول النابغة[٧٥] :

فإن أكُ مظلوما ؛ فعبدٌ ظلمتَهُ وإنْ تك ذا عُتبى فمثلُك يُعْتِبُ

ويخشى طرفة بن العبد عقاب الملك فيعتذر لعمرو بن هند – وقد بلغه أنه هجاه – فيقول طرفة[٧٦] :

إنّي وجدّكَ ما هجوتك وإلا نصابِ يُسْفَحُ بيهنَّ دَمُ

ولقد هَمَمْتُ بذاك إذ حُبِسَتْ وأُمرّ دونَ عُبَيدة الوذَمُ

أخشى عقابكَ إن قدرْت ولم أغدِر فيؤثَر بيننا الكلِمُ

---

(٧٤) الديوان ٢٥ .

(٧٥) المصدر نفسه ٢٥ .

(٧٦) الديوان قصيدة رقم ١٠ صفحة ١١٣ .

وهذا المثقب العبدي يعتذر إلى النعمان بن المنذر ليطلق سراح قومه راسما له صورة تليق بملكه ، فهو الكريم الجواد ، وكونه من سلف صالح زاده هذا كرما ، كما علت الكواكب على النجوم ، فهو وآباؤه كالسعود بين النجوم التي هي الملوك ، وإلى جانب ذلك فهو المؤيد من الله ، فالله ينصره ، ولو علم أنّ الجبال قد خالفت أوامره لربط الجبال بالحبال ، وسلَّمها له خاضعة منقادة . فهو الشجاع المقدام ، شديد البطش بأعدائه . ويتساءل المثقب – ليدل على عظمة وبطش ممدوحه – ، أية قبيلة لم يقتل فيها مَنْ شاء ، وكأنّه متاحٌ له ، وإن أراد البطش ، فإنَّ الغبار الناتج عن المعركة يصل إلى عنان السماء ، إلى أن يقول[٧٧] :

إلى ملكٍ بذّ الملوكَ فلم يسَعْ أفاعيله حَزْمُ الملوكِ وجودُها
وأيَّ أُناسٍ لا يُبِيحُ بقَتْلةٍ يُوازي كُبَيْداتِ السماء عَمُودها

ومن الاعتذار عن خطأ ارتكبه الشاعر بحق الملك ما تحكيه أبيات الشاعر اليشكري علباء بن أرقم بن عوف ، من وثبه على كبش للنعمان كان قد أحماه ، فذبحه ، فأغضب ذلك النعمان ، فحمل إليه ، فلما وقف بين يديه أنشد قصيدة له معتذرا فيها وموضحا له أنّه وعلى الرغم مما فعل ، وعلى الرغم من تخويف الناس له من النعمان ، إلاّ أنّه استشعر في نفسه سماحته وجوده وسخاء يديه ، فأقدم على ما أقدم عليه[٧٨] :

أُخوّفُ بالنعمان حتى كأنما قتلْتُ له خالا كريما أو ابن عمّ
وأنّ يد النعمان ليستْ بكزّةٍ ولكنْ سماءٌ تُمْطِرُ الوبل والديمْ

---

[٧٧] المفضليات قصيدة رقم ٢٨ صفحة ١٥١ ، ١٥٢ .
[٧٨] الأصمعيات صفحة ١٥٩ .

ويعتذر عمرو بن قميئة إلى المنذر ملك الحيرة مفتديا إياه بأهله وماله ، معتذرا عمّا نقله إليه الوشاة . فالمنذر قد صدّق ما قاله الأعداء ، وهو يرجوه بالتريث ، ويدعو له بالهداية ، في حوار جميل ، وقد أسقط في يديه فيقول متذللا[٧٩] :

فأهلي فداؤك مُسْتَعتبا عتبتَ فصدّقت فيّ المقالا
أتاك عدوٌ فصدّقته فهلاّ نظرت هُديتَ السؤالا

وهو يدافعُ عن نفسه ، لا يقرّ بما قالوا لأنّه لم يقل شيئا أصلا ، ثم يدعو على نفسه بأن يصيبه الويل والثبور ، حتى لا تصل يمينه يساره إن كان ما وصله صحيحا . ويتوسل إليه
أن يتصدّق عليه ويصفح عنه[٨٠] :

فما قلتُ : ما نطقوا باطلا ولا كنتُ أرهبُه أن يُقالا
فإن كان حقا كما خبّروا فلا وصلتْ لي يمين شِمالا
تصدّق عليّ فإنيّ امرؤ أخافُ على غير جُرم نَكالا

وهذا عبيد بن الأبرص يستعطف الملك حجرا الذي كان حاكما على بني أسد وملكا عليهم ، ويعتذر إليه في قصيدة لإطلاق سراح قومه الذين أسرهم وأباح أموالهم ، فيقول فيه[٨١] :

---

[٧٩] الديوان ٦٩ ، ٧٠ .
[٨٠] الديوان : ٧٠ .
[٨١] الديوان ١٢٥ ، ١٢٦ .

أنـــتَ المليـــكُ عليهـــم وهـــم العبيـــدُ إلى القيامـــة

ذُلّـــوا لسوطـــك مثـــل مـــا ذلّ الأشيقـــر ذو الخِرامـــة[٨٢]

وكان حاتم الطائي سفير قومه إلى ملك الغساسنة لفكّ أسـرى قومـه وإطلاق سراحهم ، وكان قد أسرهم الملك الغساني على أثر إغارة طـيء على ملك غسان وقتلهم ابنا لهم ، فهو يقول[٨٣] :

فاجمـــعْ فـــداءً لك الوالـــداتُ لما كنتَ فينا بخيـــر مُريدا

فتجمـــعَ نُعمـــى على حاتـــم وتُحْضرها مـــن معـــدّ شُهودا

أم الهُلكُ أدنـــى فما أن علمتُ عليَّ جُناحا ، فأخشى الوعيدا

فأحْسِنْ ، فلا عادَ فيما صَنعْتَ تُحيـــي جُدودًا وتُبري جُدودا

وهذا النابغة – وهو من طرق باب الاستعطاف مـن خـلال شـعر الاعتذار – لم يستطع وهو يمدح الغساسنة ، ويتقلب في نعيمهم أن ينـسى أبا قابوس ، بل أرسل له العديـد مـن القـصائد معتـذرا ومـستعطفا ، فهو يقول[٨٤] :

أنبئتُ أن أبا قابوس أوعدني ولا قرارَ على زأر من الأسـدِ

مهلا فـداءٌ لك الأقـوامُ كلهّمُ وما أثمّـرُ من مالٍ ومن ولـدِ

لا تقذفنّـي بركـن لا كفاءَ له وإن تأثفـكَ الأعـداءُ بالرفـدِ

---

[٨٢] الأشيقر : تصغيـر الأشقـر ، وهو الأحمر من الدواب . الخِرامة : حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير يشدّ بها الزمام . لـسان العـرب : مـادة (شـقر) ، و(خرم) .

[٨٣] الديوان ٦١ .

[٨٤] الديوان ٥٧ .

فهو الضعيف أمام النعمان وقوته وبطشه ، فالنعمان أسد جائع يزأر ، مفتديا إياه بالمال والولد ، راجيا إياه ألاّ يحمله ما لا يطيق ؛ لأنَّ النعمان هو القوي الذي لا يستطيع الأعداء مهما تآزروا أن يثبتوا أمامه .

خاتمة البحث :

الشعرُ مرآة الحياة ، حملها الشاعر في أثنائه وسجل دقائقها وحفل بالرموز والدلالات التي تبيّن مكانة الملك ، وقد صُوّر الملك بالشمس والقمر بمراحله المختلفة وهي معتقدات قديمة في الفكر الإنساني وجدت صداها في الفكر الجاهلي ، وقد جاء الحديث عن الملك وصورته ممزوجا بالقضايا الحياتية المختلفة ، فذُكِرَ الملكُ في المدح والحكمة والهجاء والرثاء والفخر والاعتذار وعكس ذكر الملك وصورته التماس الوثيق بين الشاعر وبيئته من ناحية وبين الشاعر والملك في الصورة الشعرية من ناحية أخرى ، فقد نوّع الشعراء في رسم صورة الملك وهي صورة مستمدّة من واقع حياتهم المعاشة ، فالملك يمثل جانبين في حياتهم ، فهو في الجانب الأول رمز الرهبة والسلطة والقوة والبطش والمكانة العالية . وهو من جانب آخر رمز الكرم والخير والعطاء . فالملك له قدسيّة خاصة تميّزه عن غيره ، فهو يمثل القوة أمام إحساسهم بالضعف ، ويمثل العطاء أمام جدب الصحراء ، ويمثل الأمن والأمان حين تخلو حياتهم منه .

المصـــادر :

- الأصمعيات لأبي سعيد عبد الملك بن قريب – تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون – دار المعارف – ط٧ – مـصر – ١٩٩٣م .
- الانتماء في الشعر الجاهلي – فاروق أحمد سليم – منـشورات اتحـاد الكتاب العرب – دمشق – ١٩٩٨م .
- أيام العرب في الجاهلية – محمد أحمد جاد المولى وآخرون – المكتبـة العصرية – صيدا – بيروت – د.ت .
- البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بـن بحـر الجـاحظ – تحقيـق وشـرح عبد السلام محمد هارون – مكتبة الخانجي – ط٢ – مصر – ١٩٦١م .
- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشـي – دار صادر – بيروت – ١٩٦٣م .
- ديوان الأسود بن يعفر : صنعه الدكتور نوري حمودي القيسي – مطبعة الجمهورية – ١٩٧٠م .
- ديوان الأعشى ميمون بن قيس – شرح وتعليق محمد حسين – مكتبـة الآداب – المطبعـة النموذجية – د.ت .
- ديوان امرئ القيس – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – القاهرة – د.ت .
- ديوان حاتم الطائي – دار الكتاب العربي – الطبعة الأولى – بيروت – ١٩٩٤م .

- ديوان الحارث بن حلزة – تحقيق عمر فاروق الطبـــاع – دار القلـــم – بيروت – د.ت .
- ديوان حسّان بن ثابت – مطبعة السعادة – القاهرة – د.ت .
- ديوان زهير بن أبي سُلمى – تحقيـــق وشـــرح كرم البـــستانـــي – دار صادر – بيروت – ١٩٦٠م .
- ديوان طرفة بن العبد – تحقيق دريـــة الخطيـــب ولطفـــي الـــصقال – المؤسسة العربية – ط٢ – بيروت – ٢٠٠٠م .
- ديوان عامر بن الطفيل – عناية كرم البستاني – دار صادر – بيروت – ١٩٦٣م .
- ديوان عبيد بن الأبرص – تحقيق وشرح حـــسين نـــصار – مطبعـــة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة – ط١ – ١٩٥٧م .
- ديوان عدي بن زيد – جمع وتحقيق محمد جبار المعيبـــد – بغـــداد – ١٩٦٤م .
- ديوان علقمة بن عبدة الفحل – شرح وتقديم حنا نـــصـــر الحتـــــي – دار الكتاب العربـــي – بيروت – ط١ – ١٩٩٣م .
- ديوان عمرو بن قميئة – تحقيق وشـــرح خليـــل إبـــراهيم العطيّـــة – دار صادر – ط١ – بيروت – ١٩٩٤م .
- ديوان عمرو بن كلثوم – جمع وتحقيق أميل بديع يعقوب – دار الكتاب العربي – بيروت – ط١ – ١٩٩١م .
- ديوان عنترة – تحقيق بدر الدين حاضري ومحمد حمامي – دار الشرق العربي – بيروت – ط١ – ١٩٩٢م .
- ديوان لبيد بن ربيعة – قدّم له حنا نصر الحتّي – دار الكتاب العربي – بيروت – ٢٠٠٤م .

- ديوان المتلمس الضبعي – شرح وتحقيق محمد التونجي – دار صادر – بيـــروت – ط١ – ١٩٩٨م .
- ديوان المهلهل بن ربيعة – شرح وتحقيق أنطوان محسن القـــوّال – دار الجيـــل – ط١ – بيروت – ١٩٩٥م .
- ديوان النابغة الذبياني – شرح وتعليق حنا نصر الحتّي – دار الكتـــاب العربـــي – ط٢ – ١٩٩٦م .
- شعراء النصرانية قبل الإسلام – لويس شيخو – دار المشرق – ط٣ – بيروت – ١٩٦٧م .
- شعر الرثاء في العصر الجاهلي – دراسة فنيّة – مصطفى عبد الـــشافي – الشركة المصرية العالمية للنشر – ط١ – ١٩٩٥م .
- الشعر والشعراء لعبد الله بن مسلم بن قتيبة – تحقيق وشـــرح أحمـــد محمـــد شاكـــر – دار الحديث – القاهرة – ٢٠٠٣م .
- طرفة بن العبد شاعر البحرين في الجاهلية – علي إبراهيم أبو زيـــد – مؤسسة عز الدين – الطبعة الأولى – ١٩٩٣م .
- لسان العرب : لابن منظور ، طبعة مراجعة ومصحَّحة (دار الحـــديث القاهرة ٢٠٠٣م) .
- المفضليّات للمفضل بن محمد الضبيّ – تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمـــد هـــارون – دار المعـــارف – القـــاهرة – ط٨ – ١٩٩٣م .
- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب لابن سعيد الأندلســـي – تحقيـــق نصرت عبد الرحمن – مكتبة الأقصى – عمّان – الأردن – ١٩٨٢م .